

سلسلة مقالات الابا ساويرس

البطريك الانطاكي

٢٥

مقال القديس الابا ساويرس البطريك الانطاكي

عن

الصوم الكبير

مترجم عن الفرنسية من الجزء الثالث والعشرين من مجموعة :

• Patrologia Orientales •

R. Graffin — F. Nau

Les Homélie Cathédrales de Sévère d'Antioche

Homélie CV

Publiée et traduite par Maurice Brière

Paris

يوسف حبيب

عليه حبيب يوسف

الصوم هو الذي يحد من اضطراب شهوات الجسد ويخمدها
ويغسل الانسان الداخلي من كل دنس . فيستثير العقل وتسمو
النفس فوق المادة ويستعد الانسان لتفهم الأمور الساوية .

الصوم الطاهر المقدس لا يتفق مع الامتزاج بالشر . فتهرب
من الزنا ، ولتبتعد عن المحادثات الشريرة والاعتباب ، ولتنتنع
عن التدخل فيما لا يمتيننا من أمور الغير . لأن الاعتياص يفلق
أماننا ملكوت السموات مثل الزنا والخطايا الجسيمة الأخرى .

والحجة هي تاج الصوم ، فبدونها يبدو الصوم فارغاً باطلاً .
فيلزم أن نجتهد في التواضع والوداعة نحو الجميع . لا نفعل الرحمة
نحو الفقراء ، ولا نفسو في مطالبة الذين عليهم دين

وحتى لا نسقط في الملل أثناء الصوم نهرع إلى الكنيسة ؛
نحضر القداسات ونصلي مع المصلين ونرتل مع المرتلين ، وسوف
نرى كيف أن الوقت الذي نكرسه للرب يمر بسرعة .

+++

كان بداخل تابوت العهد المقدس لوحا الناموس والوصايا
المكتوبة بأصبع الله ، وعصا هرون العجيبة التي أفرخت أوراقاً
وثماراً في ليلة واحدة بعد أن كانت قد قطعت ، والوعاء الذهبي
الذي كان يحتوي على المن النازل من السماء . وقد استولى الفلسطينيون
على التابوت بعد أن هزموا الاسرائيليين في معركة قد خططوا لها .
وإذ أغضب الاسرائيليون الله عاقبهم وضر بهم بالقروح التي يستعصي
شفاؤها ، فوضعوا التابوت على عربة وأعادوه بكل احترام مع
ذبايح كثيرة معترفين بخطاياهم .

بيد أنه مع عودة التابوت من عند الأعداء بهذه الطريقة
العجيبة الإلهية ، دون أن يهدى ذلك أحدهم الاسرائيليين ودون
معركة ، كانت أذهانهم بعيدة عن ذكر الله للدرجة أن العجائب
العظيمة التي رأوها لم توقف ضمائرهم النعسة ، فلم يحمّدوا الرب
صانع هذه العجائب ، في حين أنه كان ينبغي أن يتهللوا ويفرحوا
فرحاً روحياً مثلما فعل داود النبي فقد تهلل ورفص أمام تابوت
العهد عندما أنوا به إلى الهيكل في ظروف مماثلة .

فاذا يقول الكتاب المقدس عن أولئك الذين رأوا التابوت
في الظروف الأولى ؟ وضرب أهل بيتشمس لأنهم نظروا

إلى تابوت الرب ، وضرب من الشعب خمسين ألف رجل
وسبعين رجلاً ، ١ ص ٦ : ١٩ .

عندما أسمع ذلك فإني أرتعب وأرتجف لأن دورة هذه
الأربعين المقدسة لم ترجع إلينا من عند الفلسطينيين ، بل من
السماوات عينها ، إذ أن الأمر بالصوم صدر لإيتنا من
هناك ، إني أنحني أمامه بالتحية ؛ وليس ذلك فقط ، بل أستقبله
بسرور وأتهلل وأفرح ؛ وأدعوك أيضاً أن تحذوا حذوى لأنه
يلزم أن يكون الفكر سليماً حتى يصير العمل سليماً ، فالفكر
مصدر العمل .

+ + +

لماذا صام المسيح ؟

ان الصوم لا يجلب ألواحاً حجرية ، بل ينقلنا إلى معية المسيح
ذاته ، الله ، المشرع والملك ، الذي صام هذا الصوم من أجلنا .
متى كان الطبيب المداوى محتاجاً إلى الأدوية ؟ ان الأدوية لا
تنفع حقاً للمرضى . فكيف يكون ذلك الذي لم يعرف خطية
معدوداً ضمن المرضى ؟ لكنه لاجلنا ولأجل خلاصنا تجسد
وتألم ، ولاحظنا صام ، وليس عن ضرورة . ويشهد بذلك
بولس الرسول إذ يقول : « فإنكم تعرفون نعمته ربنا يسوع

المسيح أنه من أجلكم اقتصر وهو غني لكي تستفتوا أتم بفقره ،
٣ كو ٨ : ٩ .

ان الله ليس محتاجاً إلى شيء إطلاقاً . وبذمته لنا قيل أن
يصير فقيراً من أجلنا وهو الغني .

قال بولس الرسول هذه الكلمة العظيمة لكي يبين أموراً
كثيرة ، يقول : « لأنكم تعرفون نعمته ربنا يسوع المسيح ، :
أنا في حاجة إلى أبصار روحية حادة لكي نفهم ذلك ، فإن الغنى
بطبعه قد جعل نفسه فقيراً لاجلنا ، إذ أخضع ذاته فصار انساناً
فقيراً مع أنه الله في نفس الوقت .

كيف يستطيع من لا يكون غنياً بطبعه أن يجعل نفسه فقيراً ؟
وما هو الغنى الذي عسى أن يعطيه لنا من هو ليس سيداً لكل
الاشياء بجوهره ؟

ان كل من يقول ان المسيح ذو طبيعتين بعد الاتحاد غير
المنطوق به يمزو صوم المسيح إلى الطبيعة البشرية ، وكذلك كل
أعمال التدبير الإلهي المتواضعة ، ويقسم المسيح ، ويمجد الرب الغني
من افتقاره الاختياري . فيهدم سر التقوى العظيم .

لأن الله المتألم لم يصم عن ضرورة ، ولكنه صام لأجل
تعليمنا . وعندما جاع بالحقيقة كان ذلك بإرادته وهو المسير
القوانين الطبيعة .

تجربة المسيح

كذلك أيضاً عندما جاء ليربط القوى بعظمة قدرته الإلهية
ويأخذ أسلحته ، ولكن متى جاء من هو أقوى منه فإنه يقبله
ويتزع سلاحه الكامل الذي اتكل عليه ويوزع غنائمه ، لو ١١: ٢٢ .
فإن ذلك بالتأكيد كان من أجلنا نحن الذين كنا تحت سيطرة
الشیطان ، فقد أخذ المسيح التجربة على عاتقه وصد هجمات العدو
وكان يرد بطريقة متواضعة بشرية على كلماته الماكرة . وبذلك
أعطانا التعاليم التي يلزمنا السلوك بمقتضاها أثناء معاركنا ، كما
أعطانا التدريبات التي نسمع بنا نحو السكّال ، وكذلك كسر العدو
وشل قوته . ويقول بولس الرسول . « لأنه في ما هو قد ألم
بجرباً يقدر أن يعين المجربين » عب ٢ : ١٨ .

إن ربنا يسوع المسيح برسمه لنا طريقة مواجهة التجربة يعطينا
معمونة قوية تكفي لصد المجرب . فتجربة المسيح لم تكن إذن عن
ضعف . وكيف تكون عن ضعف تلك التجربة التي أعطت
المجربين المعمونة ؟

لذلك أيضاً فإن الملائكة قد تقدموا وكانوا يخدمونه ، مع
أن ملاكاً واحداً يستطيع بأمر الله أن يقهر الشيطان . يقول :

وتم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارن تخدمه . مت ٤ : ١١ .
وهكذا يتبين لنا أمران إلهيان . أولهما وجهة نظر التعليم ،
وثانيهما وجهة نظر الإرادة الحرة إذ إن فقر لأجل خلاصنا
وصام عنا .

+ + +

ضرورة صيامنا من أجل المسيح

فن ذا الذي يحتقر الصوم كأنه أمر لا لزوم له بينما أظهر الله
مخلصنا ضرورة الصوم لنا ؟ ثم إذا كنا ملزمين بتنفيذ أوامر
الملوك بمجرد إعلانها بواسطة أعرانهم ، فعندما يصوم الله الكلمة
المتجسد من أجلنا ويأمرنا أن نصوم مثله ، أفلا يكون كل من
لا يطيع فوراً متطاولاً مهيناً ؟

وكما سمعنا المسيح يقول في الأناجيل : « من يأكل جسدي
ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيم في اليوم الأخير . . . »
« من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه . يو ٦ : ٥٤ »
« كذلك بما فعله من أجلنا نتصوره بوضوح كأنه يقول لنا :
« من يصم صومي ينل الحياة الأبدية ، ويثبت في وأنا فيه . وأيضاً
بنفس الطريقة من يحمل صليبي ومن يفترق بفقرى ، ومن يبشّر

بكلمتي ، ومن يرتبط حقاً بما هو لي . لانه لانما علم لكي نعمل ،
وليس لتتعدى وصاياه بتوايننا عن العمل .

ومع كل ، لو افترضنا أن الصوم ليس ضروريا ولا يظهر
النفس ، فهل هذا شرف قليل أن نصوم مع المسيح ؟ من يشترك
مع الملك في أعماله ينل شرفا . فهلا يكون للاقتداء بالمسيح إلحنا
مكافأة إلهية ؟ ألا يجب علينا أن نرغب في تلك الامتيازات الإلهية
أكثر من الأشياء الزائلة ؟

فما أن الصوم أمر عظيم ضروري يقودنا إلى الله ويرفنا
إلى درجة الاقتداء به تعالى ، فلنصم من أجل ربنا يسوع المسيح .
لذ أننا نستطيع الصوم صوما خاصا وليس من أجل المسيح ؛
مثل العشر عذارى اللواتي بعد أن أشعلن مصابيح البتولية وزينها
بمناية ، وبعد أن ذهبن للقاء العريس ، لم يفرن كلهن بالدخول إلى
العرس ، فقد كان بينهن من أشعلن مصابيحهن من أجل أنفسهن
وليس من أجل المسيح ، لانهن تحولن عن الشفقة على المحتاجين .
هكذا فإننا نستطيع الصوم ولكن صومنا لا يكون من أجل
المسيح .

ولو أعلن أحد الملوك في إحدى مدن مملكته انه يريد أن
يتزوج بإحدى فتيات المدينة التي يجدها في يوم معين أجمل من

الأخريات شريفة طاهرة موهوبة ، أفلا يجتهد حقا كل من لديه
فتاة في أن يجمع فيها كل زينة الروح والجسد حتى تصير أجمل
فتاة ، إبتغاء شرف مصاهرة الملك ؟

فلينزل كل صائم صومه بكل زينة كأنه أبنته ، خوفاً من أن
يحسب الملك المسيح صومه غير مقبول .

+ + +

الصوم المقبول

إذا امتنعت عن الأكل ثم اقترب منك أحد هؤلاء الجالسين في الساحة يطلب منك صدقة أو أى شيء آخر مما هو عندك بوفرة ويسهل عليك جداً أن تعطيه إياه ، فطردته بعيداً بدون شفقة ولم تفعل شيئاً من أجله ، بل أكثر من ذلك ، كما يحدث كثيراً ، ربما شتمته أيضاً ، ففي هذه الحالة تكون صائماً من أجل نفسك وليس من أجل المسيح .

وانك لتأتى عملاً مماثلاً لو حاسبت المدينين لك بالفضة أو الذهب أو الفوائد المركبة حساباً عسيراً . ولكن إن كنت على النقيض من ذلك عادلاً بشوشاً ومحباً . ترك جزءاً مما لك عند الناس ، خفية وفقاً للإنجيل ، ولا تهتم بهذا الجزء وتفتاساه حتى لا تظهر عمالك فلا يعرف شمالك ما يصنع يمينك ، وتصنع رحمة لا يعلم بها إلا الله من أجل زوجة وأبناء ذلك الانسان الذين يعولهم بهـمهـه ، حينئذ تكون قد زينت صومك بزينة ملكية .

وإذا كنت تصوم وتفشل في نفس الوقت بالقضايا ، فتقدم هذا للدعا كمة وتحبس ذاك في السجن . وترتك آخر يتمزق

بالضربات ، حينئذ يكون صومك شريراً مرفوضاً ، ويجول الملك وجهه عنك .

وإذا كنت تطيل الصوم في حرمان شديد من الأطعمة وتعدى الوقت المناسب ، فتبتعد عن الطعام ولكنك تصير حزيناً هابساً ، تنضب بمرارة نفس ، وتهين وتشتم وتجرح ، ترعى الغضب في روحك ، وإذا نطقت بكلمات الاستهزاء غير الشريفة وتمتعت بنظرك برؤية النساء والمسرحيات المبتذلة ، وتمتعت بسمك بالأغاني المائمة ، حينئذ تكون قد نسيت أن الوحل يملأ صومك .

أيها الانسان : ان لسانك قد يبس من العطش والحرمان من الأطعمة وليس به رطوبة ، ذلك حتى يصير غير مخصب لإزام الإهانة والمشاجرة ، فلا تجد الوسيلة التي تخدم بها تلك الأعمال جاهزة فوراً ، فلا يحمو غضبك بسبب الصوم .

ان الصوم يعلم الحزن ، ويدعو إلى التواضع ، ويظهر العين ، فيضبط الانسان نظراته غير المرتبة حتى لا يدخل الاضطراب إلى الروح وينشر بسيرة في كل أمور الانسان ، فيؤخذ المرء في شباك الشهوة .

فإذا كنت تصوم وتذهب بإرادتك إلى المراقص والملاعب

ثمار الصوم

فبما أن الصوم أمر صالح وهو وصية الروح القدس ، فثماره أيضاً صالحة ويتمجد الله بها .

ما هي ثماره ؟

ان بولس الرسول يعددها في رسالته إلى أهل غلاطية :
« وأما ثمر الروح فهو محبة ، فرح ، سلام ، طول أناة ، لطف ، صلاح ، إيمان ، وداعة ، تعفف ، . غل ٥ : ٢٢ - ٢٣ :

إن لم يعطِ صومنا هذه الثمار غير المتفقة مع نوعية الصوم المقبول ، بالرغم من مدحنا لفضيلة الصوم ، فإن الرب مخلصنا سوف يقول لنا : « اجعلوا الشجرة جيدة وثمرها جيداً أو اجعلوا الشجرة رديئة وثمرها رديئاً . لأن من الثمر تعرف الشجرة . » مت ١٢ : ٣٣ .

يلزمنا أن نعلم يقيناً أن زيادة الاهتمام بالمظاهر هو رياء قد أسى عن ثمار الصوم غريباً . فالصوم من أجل الافتخار والمجد الباطل يعد نكبة ولا فائدة منه ، لأنه يخالف لوصية ربنا له المجد بإخفاء الصوم الحقيقي إذ يقول :

« الملية بكل الترف وتستمتع إلى الأغانى الماجنة ، فإنك بذلك تعطى فرصة للذين لا يصومون أن يقولوا : « ماذا فعل الصائم أكثر منا ؟ وفيه يكون أطهر منا ؟ فيم هو أكثر محبة ، أو أكثر وداعة ؟ ألم يبدو أكثر قساوة ؟ رؤيته مكروهة ومقابلته صعبة ، وهو لا يحتمل حتى ليتحاشى الناس تحيته ، وأكاد أرتعب خوفاً وأنا أتمشله يكاد بعض من يقترب منه . الأفضل للإنسان أن يأكل لحماً ويشرب خمرأ من أن يكون في سلوكه منفراً بهذه الكيفية كالحيوانات المفترسة . وآخر يصوم ونجده جالساً مع المهرجين الذين يروون النكات في صالات الرقص ، يستبيح لنفسه أن يكون جاحظ العينين في كل الأمور الفاضحة . »

ويتساءل البعض الآخر من الذين لا يصومون ولكنهم لا يندخلون هبناً فيما لا يعينهم : « هل أنا أقل شأناً من الصائم ؟ في رأيي أن فطري خبير من الصوم المفترن بالأعمال السيئة . »

ويقول ذلك وهو يعتقد أنه بار ، وربما يكون مريضاً بالبخل أصل كل الشرور وجذرها المر . ويتبين لنا خلال هذا القول أن الذين يصومون وفي نفس الوقت يفعلون ما لا يتفق والصوم سوف يحاسبون أيضاً على التجديف الذي يصير بسببهم .

+++

و متى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين . فإنهم يغيرون
وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين . الحق أقول لكم أنهم قد
استوفوا أجرهم . وأما أنت فتصمت فادهن رأسك واغسل
وجهك . لكي لا تظهر للناس صائماً بل لا يبيك الذي يرى
في الخفاء . فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية ،
مت ٦ : ١٦ - ١٨ .

ان المرأين لا يصومون ، وإنما يريدون أن يظهروا كأنهم
لنساك أطهار وهم يتمرغون في شهوات مغزية جداً . ان حالهم
يدعو إلى الرثاء بسبب العذاب الذي ينتظرهم .

أما نحن الضعفاء الخطاة ، فإننا ربنا من قسوة الفريسيين
وتسددهم المكروه الذي يقول عنه الرب لرسله في الانجيل : « أولاً
تعرزوا لأنفسكم من ضمير الفريسيين الذي هو الزياء ، لو ١٢ : ١٠ .
وأنت أيضاً أيها المرأة ، عندما تصومين ، أفولها لك كلمة
خاصة بالإضافة إلى الوصايا العامة ، أحذري الغضب لأنه يستهوي
النساء بسهولة ؛ ولا تكوني شديدة نحو خدمك ، ولا تطيل
الخدمة ولا تضيئي إليها شيئاً جديداً ؛ واطلبي المعتاد فقط خوفاً
من أن يهان الصوم بسببك . كوني بحسنة لطيفة متواضعة مسالمة
قائمة حليلة . وإذا حدثتك نفسك برفع يدك للضرب ، فتصوري

الصوم كأنه ملكة مهاجرة تمسك بك وتمتعك من أن تضربني .
وعندما يتملكك هذا الشعور ، حينئذ تسيطرين على قوة
الغضب ، وتتوجك الملكة ، ولا تحتاجين إلى شيء ، وتسيرين
كل حياتك في هدوء وسكينة .

فلزني صومنا بالأعمال الصالحة لنجعل منه صوماً من أجل
المسيح إلهنا حتى نحتفل بعيد القيامة ليس بخمير الخطايا العتيق بل
بفطير الطهارة والحق والتجديد الكامل الإلهي : إذاً لتعيد ليس
بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث بل بفطير الاخلاص
بالنعمة والرافة ومحبة البشر اللواتي لذلك الذي دعانا
له المجد إلى أبد الأبد آمين .

+++